مقدمة

عندما يذكر لفظ العولمة **Globalization** ينصرف الذهن إلى أحد معنيين ، أشهرهما العولمة بمعنى جعل الشيء على مستوى عالمى أى نقله من حيز المحدود إلى آفاق اللامحدود ، واللامحدود هنا يعنى العالم كله، فيكون إطار الحركة والتعامل والتبادل والتفاعل على اختلاف صوره السياسية والاقتصادية والثقافية وغيرها متجاوزاً الحدود الجغرافية المعروفة للدول المختلفة ، وهذا المعنى يجعل العولمة تطرح – ضمناً – مستقبل الدولة القومية **Nation State** وحدود سيادتها ودورها سواء على المستوى الداخلى أو الخارجى.

والعولمة مصطلح ازداد استعماله فى السنوات الأخيرة لكن مفهومها ما زال يكتنفه الغموض فى ذهن البعض بينما ينظر إليه آخرون بريبة على أنه مجرد واجهة أخرى للهيمنة الأمريكية غير أن العولمة ستظل تطفو أكثر وأكثر فى نقاش المسائل العامة ، وتتسلل أكثر إلى الدراسات الأكاديمية وهذا ما يستدعى الاهتمام أكثر بالموضوع ، مع أن العولمة ليست بالشيء الذى نحتاج إلى من يلفت نظرنا إلى وجوده ، إنها شيء نعيشه ونتنفسه فى حياتنا اليومية فى العقود الثلاثة الأخيرة ؛ إذ بدا الأمر وكأنما العالم هجم علينا بأخباره منذ أن صرنا نتابع من خلال وسائل الإعلام المتطورة باستمرار (الفضائيات والإنترنت) الأحداث لحظة وقوعها مهما بعد مكان حدوثها ، وأصبح تداول البضائع على اختلافها مشتركاً فى كل أنحاء العالم الذى كاد يصبح قرية كونية.

كما أن العولمة فى هذه الأيام ظاهرة من ظواهر العصر الذى نعيشه وموضوع الساعة الذى يتحدث فيه ويكتب عنه الجميع فى مختلف المجالات والتخصصات ، ويكاد يجمع كل البشر على أن للعولمة جذوراً متعددة ومتشابكة ضاربة فى عمق التاريخ ، وسواء أكانت هذه الجذور اقتصادية أم سياسية أم اجتماعية، فإنها فى كل الأحوال تنعكس على الجوانب الثقافية ، أى إنها – باختصار– تكاد تكون عولمة ثقافية ، ولتوضيح هذا يمكن الإشارة إلى أنه إذا كانت العولمة قد بدأت وتزايد الحديث عنها ، باعتبارها عولمة اقتصادية أو عولمة تكنولوجية أو عولمة سياسية ، فإن كل هذه الجوانب سوف تتحول إلى أدوات لتحقيق

العولمة الثقافية التى هى فى الواقع نهاية المطاف.

والبعد الثقافى هو أكثر الأبعاد غموضًا من بين أبعاد العولمة المختلفة ، والعولمة الثقافية تعنى ظهور عالم بلا حدود ثقافية ، فالأفكار والمعلومات والأخبار والاتجاهات القيمة والسلوكية تنتقل بحرية كاملة على الصعيد العالمى ، دون أى تدخل من قبل الدولة ، وهذا البعد يعد من التحديات الحضارية التى تواجه العالم العربى والإسلامى ؛ حيث إن البعض ينظر إلى العولمة الثقافية على أنها مخطط أو إستراتيجية محددة ، تم تخطيطها وتنفيذها بوعى ، بهدف اجتياح العالم وتهديد الثقافات المحلية والقومية ، لقد أحدثت العولمة تفاعلات ومواجهات لم يعرفها العالم من قبل ، نتيجة لإسقاطها المستمر لحدود الزمان والمكان ؛ فهى تهدد الحدود الجغرافية والسياسية للدولة ، ولذلك فإن بروز مفهوم الهوية يكون من خلال الدين واللغة والدولة.

ولعل أخطر النتائج المترتبة على العولمة – باعتراف معظم الباحثين – تلك النتائج المتصلة بمخاطر الاقتلاع الثقافى والخوف من فقدان الهوية لدى العديد من الشعوب والأمم والفئات الاجتماعية التى تزداد هامشيتها وضياعها ، صحيح أن ما يحدث اليوم يشكل تغييراً هائلاً تدخل معه البشرية فى عصر المجال السمعى والبصرى ، والتواصل الفورى والمباشر ، أى إن النمط التلفازى هو المسيطر كما لو أننا إزاء عالم افتراضى أثيرى يتألف من الصور والإشارات والنصوص المرئية والمقروءة على الشاشات الإلكترونية الدائمة البث ، بما بات يشكل تهديداً لمنظومات القيم والرموز وتغييراً فى المرجعيات الوجودية وأنماط الحياة ؛ حيث وجدت الثقافات الخاصة بالأمم والشعوب الأخرى نفسها عارية أمام تدفق الرسائل والعلامات التى تجوب العالم على مدار الساعة حاملة معها أبطالاً ورموزاً جديدة أخذت تملأ مخيلة المشاهد.

العولمة الثقافية ومدى تأثيرها فى الفكر والثقافة الإسلامية

تعنى العولمة الثقافية تصدير المعلومات والثقافات والأفكار والأيديولوجيات الغربية عبر وسائل الاتصال ، وشبكة المعلومات ، والفضائيات .. وغيرها إلى كافة دول العالم دون قيود أو حدود ، بل مع تجاوز الحدود والقيود واختراق الثقافات والخصوصيات بحيث ينصهر الجميع فى بوتقة العولمة وثقافتها.

والحقيقة أنه فى ظل التقنيات الحديثة ، والسماوات المفتوحة ، وفى ظل شبكة المعلومات والاتصالات لم يعد وضع الحواجز أو القيود أمام هذا التدفق الثقافى الإمبريالى ممكناً ، ولم يعد الانغلاق والانطواء والانسحاب دون هذا السيل الجارف مجدياً، بل أصبح نقل وتدفق المعلومات والأفكار والصور يتم بسرعة الضوء وعلى مدار الساعة متجاوزاً حدود الزمان والمكان ، ومخترقاً الثقافات والخصوصيات.

وعن طريق وسائل العولمة السابقة يصدر إلينا الغرب مذاهبه الفكرية الهدامة، وعقائده الملحدة ونفاياته الثقافية الماجنة لإضعاف علاقة المسلمين بربهم وكتابهم ، وإقصاء الإسلام عن ساحة التوجيه والفعل والحركة ، والقضاء من ثم على الهوية الإسلامية والخصوصية الثقافية ليتسنى له بذلك استعمار العقول والقضاء على ذاكرة الأمة بتراثها وثقافتها وتاريخها.

نعم إننا لا نتعرض وحدنا لهذا الغزو الفكرى والثقافى ، بل هناك غزو ثقافى يطوف أرجاء العالم بسبب انفجار ثورتى المعلومات وتكنولوجيا الاتصالات التى تملأ الفضاء اليوم بمئات الأقمار الاصطناعية ... ولكننا أول المعنيين به ، وأول المتضررين منه.

وقد مرر الغرب خطته لهذا الغزو الفكرى والاختراق الثقافى الذى رأى أنه الخيار الأفضل للقضاء على الصحوة الإسلامية من خلال قنوات ثلاث هى :

١- الإعـــلام :

فهناك المراكز الإعلامية المتعددة التى تتلقى عن الغرب معظم موادها الإعلامية وتنشر ثقافة الغرب وفكر العولمة ، بعد أن أصبح معظم مواد الإعلام تجارة لا ثقافة.

وحسبنا أن نشير إلى أن نحو ٧٠٪ من المواد المعروضة فى التلفاز فقط فى هذه المنطقة من العالم هى مواد أوربية وأمريكية وهندية ... وأن نسبة الـ ٣٠٪ الباقية هى مواد محلية وعربية ... وأن نحو ٨٠٪ من نسبة الـ ٣٠٪ هى مواد بصرية تعتمد على الأفلام والمسلسلات ... وأن نسبة ٨٠٪ من نسبة الـ ٧٠٪ المستوردة من أوربا وأمريكا تقوم على ثلاثية (الجنس والجريمة والرياضة) .

وتشير إحصاءات منظمة اليونسكو عن الوطن العربى إلى أن شبكات التلفاز العربية تستورد ما بين ثلث إجمالى البث كما فى سوريا ومصر ، ونصف هذا الإجمالى كما فى تونس والجزائر ، أما فى لبنان فإن البرامج الأجنبية المستوردة تزيد على النصف ؛ إذ تبلغ ٨٥٪ وتبلغ البرامج الثقافية منها ٦٩٪ وأغلب هذه البرامج يبث من غير ترجمة ، كما يبث ثلثا برامج الأطفال بلغات أجنبية من غير ترجمة أيضًا. هذا ما تستورده هذه البلاد فضلاً عما يبث مباشرة عبر القنوات الفضائية.

٢- التعليم :

وذلك باحتواء المناهج التعليمية وعلمنة التعليم ، وتحقير الفكر الدينى ومحاصرته بدعوى الأصولية والسلفية والتخلف ، والدعوة إلى تطوير الخطاب الدينى ... إلخ ، حتى يتم القضاء على التربية العقدية والأخلاقية التى تعصم النشء من درن الأفكار الوافدة والثقافة الغازية ... حتى أصبح الواقع التربوى اليوم يتميز بالتناقض فى مضامينه ، والاضطراب فى أهدافه ، والاغتراب فى مناهجه.

٣- التثقيف :

وذلك بتلويث الموارد التثقيفية ، وتصدير النفايات الثقافية أو بتعبير وزير الثقافة الفرنسى «جاك لانج» «الزبالة الأمريكية المسمومة القادمة عبر الأطلنطى» ، وبصناعة المفكرين المستغربين ممن بهرهم فكر الغرب وثقافته ، وقد ساعد على ذلك ما يأتى :

* الغياب شبه التام للوسائل الإعلامية المحلية عن تقديم المواد الثقافية الجادة، والبرامج الترفيهية الهادفة لإشباع عقل المسلم وعاطفته ثقافيًا وفكريًا وترفيهيًا.

* ما تنتجه وتعرضه بعض القنوات الفضائية المحلية من إنتاج محلى مقلد لا يختلف عن مثيله من الإنتاج الغربى ، إن لم يفقه إسفافاً وانحطاطاً فى كثير من الأحيان.

* الغياب الكبير أو الإهمال وعدم الاهتمام بالتربية الدينية والأخلاقية التى تعصم المسلم من درن الثقافة الغازية ، ومثيلها من الإنتاج المحلى الهابط وغير الهادف.

* إعصار التيارات الفكرية المضللة التى يثيرها بعض المبهورين أو المخدوعين أو المأجورين ممن يحاولون أن يعصفوا بثوابتنا وتراثنا وثقافتنا لحساب ثقافة الغرب وفكر العولمة بذريعة التطوير والتنوير والحداثة وما بعد الحداثة... إلى آخر المفردات البراقة.... والكثير مما يكتبه هؤلاء الذين يعيشون على موائد الثقافة الغربية لاشك كان له أبلغ الأثر على هويتنا وثقافتنا وهو ما يدخل ضمن مؤثرات العولمة ونحن لا ننسى مثلاً الأثر السلبى الذى تركته رواية «آيات شيطانية» لسليمان رشدى ، وما تركته رواية «وليمة لأعشاب البحر» لحيدر ، وما يكتبه أمثال هؤلاء فى العالم العربى الإسلامى ؛ مما يحمل فكر الغرب وثقافة العولمة.

ونحن لا نريد أن نقف منغلقين على ذاتنا ضد كل وافد ، ولكن يجب أن يكون لنا فكر واع وعقل ناقد بحيث نأخذ ما ينفعنا وندع ما يضرنا، وهو ما يدخل فى معنى التبادل الثقافى الذى نشجعه ونحرص عليه.

مخاطر العولمة الثقافية :

إن من أهم المخاطر التى تترصد العالم الإسلامى من وراء العولمة الثقافية هدم البناء العقدى والروحى الذى جاء به الإسلام والذى يمثل هويتنا ويشكل جوهر فكرنا وثقافتنا ؛ لأن ثقافة الغرب كما نعلم ثقافة مادية لا يعنيها إفقار الروح فى سبيل رفاهية البدن، والاعتداء من ثم على العقائد والقيم والأخلاق....

إن الغرب الصليبى لم تحكمه يومًا ما شريعة الله وإنما حكمته الكنيسة أو رجال الكنيسة باسم الحق الإلهى المقدس، وباسم هذا الحق مارست الكنيسة سلطانها وطغيانها على العلم والعلماء ؛ فكانت العلمانية التى كفرت بالكنيسة ودينها، وجاءت

كرد فعل لما عاناه العلماء والمفكرون من ظلم واضطهاد على أيدى رجال الكنيسة ومحاكم التفتيش التى ذهب ضحيتها أكثر من أربعين ألف عالم فى نحو ثلاثة قرون، وما يزال الغرب منذ عصر النهضة الأوربية وحتى اليوم يحكمه فكر العلمنة الغربية الملحد والذى يتمثل فى :

* إن الحياة مادية.

* إن المادة مكتفية بنفسها.

* إن الحياة غاية فى ذاتها وليس وراءها حياة أخرى ، وليس وراءها إله يدبر شئونها ، بل تحكمها السنن الكونية والقوانين الطبيعية.

ويمكن توضيح أهم هذه المخاطر فى النقاط التالية :

* تغييب الأساسيات الدينية ، سواء أكانت مبادئ إيمانية أم أحكامًا شرعية تحت وطأة الفكر الإلحادى والنظريات المنحرفة عن الحقائق الدينية أو عن طريق الاستخفاف بها ، وما تمثله من حق مطلق.

* ومن هذه المظاهر تحريف المفاهيم المنبثقة عن ثقافة الأمة لتأخذ مسار الوجهة الغربية فى النظر إلى الحياة.

* الغزو الثقافى فى محاولة لإذابة الثقافات الأخرى وحضاراتها ضمن الثقافة الجديدة ، وأبسط مثال لذلك يتجسد فى الإعلانات والمسلسلات والبرامج الغربية والأمريكية التى تغطى مساحة واسعة من ساعات البث التلفازى والإعلامى ، والتى تعتمد على النظام السمعى والبصرى حتى ألفها الناس، وكأن ذلك أصبح من الطقوس اللازمة فى حياتهم مما يساعدهم على تسريب الثقافة الغربية إلى عقول الناس ونفوسهم.

* التحكم فى معظم مصادر البث الإعلامى والأقمار الصناعية ومواد تصنيعها وكذلك طرق تجارتها ، والأشكال القانونية التى تنظمها ، بما فى ذلك المواد الثقافية وبنوك المعلومات وآلات الطباعة والتصوير وأجهزة الكمبيوتر والاتصال.

* إن العولمة بهذا المفهوم هى لون من ألوان الإمبريالية الثقافية التى تقوم على الإنكار والإقصاء لثقافة الغير وعلى الاستعلاء والمركزية الذاتية

واستثمار نتائج العلوم والتقنية فى ميدان الاتصال من أجل السيطرة وفرض الحضارة الغربية على الفكر الإنسانى.

* والنخب المثقفة المتغربة تقوم أيضاً بدورها على الرغم من استغناء الغرب الآن عن كثير من جهودها بحكم مباشرته لمهماته بنفسه لكنها تظل تواصل دورها فى إغراق المجتمع المسلم بأنماط العولمة التى كانت قبل سنوات تنقل باسم الحداثة والتغريب.

* ومن ذلك الخروج بالمرأة عن أنوثتها الفطرية الإنسانية باسم الحرية ، وتحويلها إلى سلعة يتاجر بها ووسيلة جذب للدعايات على أغلفة الصحف، وتقديم البرامج الإغرائية فى القنوات واختلاطها... ودفعها إلى منافسة الرجال والتحرر من الالتزامات.

المراجع

* أحمد عبد الرحمن أحمد : العولمة: المفهوم والمظاهر والمسببات ، مجلة العلوم الاجتماعية ، تصدر عن مجلس النشر العلمى ، جامعة الكويت ، المجلد ٢٦ ، العدد (١) ، ١٩٩٨م.

* أحمد عبد الله الطيار: العولمة والثقافة الإسلامية ، مجلة كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية ، جامعة الأزهر ، العدد الثانى والعشرون ، ٢٠٠٣م .

* بثينة حسنين عمارة : العولمة وتحديات العصر وانعكاساتها على المجتمع المصرى ، دار الأمين للطباعة ، القاهرة ، ١٩٩٩م.

* سعيد طه محمود والسيد محمد ناس : قضايا التعليم العالى والجامعى ، مركز آيات للطباعة والكمبيوتر ، الزقازيق ، ٢٠٠٣م.

* شريف محمد شريف : التعليم والتنمية البشرية فى مصر، دراسة تحليلية مستقبلية ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية التربية بدمياط جامعة المنصورة ، ٢٠٠٢م .

* طه عبد الرحمن : روح العولمة وأخلاق المستقبل ، مجلة إسلامية المعرفة، يصدرها المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، العدد السادس والعشرون ، ٢٠٠١م.

* عبد الجليل كاظم الوالى : جدلية العولمة بين الاختيار والرفض ، مجلة المستقبل العربى ، تصدر عن مركز دراسات الوحدة العربية ، العدد ٢٧٥ ، ٢٠٠٢م .

* عبد الرحمن محمد المراكبى : العولمة وأثرها فى الفكر والثقافة ، مجلة كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية ، جامعة الأزهر ، العدد الثانى والعشرون ٢٠٠٣م.

* كريم أبو حلاوة : الآثار الثقافية للعولمة ، عالم الفكر ، المجلد ٢٩ ، العدد ٣، ٢٠٠١م .

* مجيد الراضى : الثقافة والعولمة ، بحث فى الجذور ، مجلة النهج ، تصدر عن مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية فى العالم العربى ، العدد ٥٥ ، ١٩٩٩م.

* محمد إبراهيم عطوة مجاهد : بعض مخاطر العولمة التى تهدد الهوية الثقافية للمجتمع ودور التربية فى مواجهتها ، مجلة مستقبل التربية العربية ، المجلد السابع ، العدد (٢٣) أكتوبر ٢٠٠١م .

* نجوى يوسف جمال الدين : العولمة التعليمية، دراسة تحليلية لمؤتمرات التعليم للجميع ، مجلة مستقبل التربية العربية ، المجلد السابع ، العدد (٢٣) أكتوبر ٢٠٠١م.

* هالة مصطفى : العولمة دور جديد للدولة ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ١٣٤ ، أكتوبر ١٩٩٨م.